مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

استنطاق الفضاء في رواية "وداع مع الأصيل"..
"حيفا" مدينة الدم والدموع

The space speaking for itself in the novel "A Farewell with the Authentic"
Haifa, city of blood and tears

د. صافية دراجي
Safia.derradji@gmail.com
جامعة محمد بوقرة - بومرداس

تاريخ الإرسال: 2020/06/15 **تاريخ القبول: 2022/03/24**

I. الملخـــص:

وداع مع الأصيل، رواية واقعية كتبتها الفلسطينية "فتحية محمود الباتع: لتسرد قصة من قصص الواقع المخزي، في مدينة "حيفا".. مدينة الأصالة والبهاء التي شهدت، بل سجلت أنواعا من المآسي دونها التاريخ على صفحاته الدامية بلون الدم.

تناولنا بالدراسة والتحليل هذه الرواية بالنظر إلى الشخصيات التي شكلت الفعل السردي، وبالنظر إلى الموضوع الأساس وهو نكبة فلسطين من خلال صورة مدينة "حيفا".. كيف كانت، ثم كيف صارت، كيف طرد سكانها من أرضهم، كيف شرد أهلها، كيف تواطأ العدو الخارجي مع خونة من الداخل طمعا في الثراء حيث باعوا أرضهم للعدو اليهودي، خائنين الله والوطن، أما النبلاء – وهم أبطال هذه الرواية – الذين وقفوا بالمرصاد للطاغية اليهودي فقد دفعوا حياتهم وحياة أحبابهم ثمنا لمأساة مازالت إلى اليوم تتهجد بسنفونية الدم والنار.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

الكلمات المفتاحية: الموضوع؛ الأحداث ، الفضاء الروائي، المدينة، نكبة 48.

I. ABSTRACT:

Farewell with the Authentic, a novel written by the Palestinian "Fathia Mahmoud Al-Batea: To narrate a story among the shameful reality stories, in the city of" Haifa ", which God loved by all standards of divine supernatural beauty, where a happy family lived, suddenly and after the Nakba that happiness turned into a tragedy.

We studied and analysed this narration by looking at the characters that formed the narrative act, and by considering the main issue, which is the Nakba of Palestine through the image of the city of “Haifa”...

Keywords: topic ; events ; novel space ; city ; Nakba of 48

محتوى المقـــال:

يقال إن الأحداث العظيمة تصنع رواية عظيمة.. وفلسطين شهدت في تاريخها أحداثا عظيمة، تغيرات كثيرة في هرم المجتمع، في التكوين الأوركيولجي للذهنية الفلسطينية.. يكفي أنها تجابه أشرس وأحقد وأخبث جنس بشري على وجه الكرة الأرضية.

عاشت فلسطين رهانات كثيرة، وتحديات كبيرة.. وكان تقسيمها بين اليهود والشعب الفلسطيني نقطة تحول خطيرة وعنيفة في قناعات العربي بله الفلسطيني، في الذهنية العربية عموما والفلسطينية خصوصا، في الكتابة الأدبية شعرية ونثرية..

إن إحكام اليهود قبضتهم على دولة فلسطين خلف مأساة حقيقية في نفوس العرب والمسلمين جميعا.. دمر نفسيتهم وأحلامهم وآمالهم بكل ما تحمله كلمة دمار من

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

معنى، بكل ما خلفته من ذعر ورعب، من قلق وخوف، من تشرد وضياع.. كل هذا صنع رواية فلسطينية تضاهي وتظاهر حجم المأساة..

بل إن أغلب الأعمال الفنية والأدبية بما فيها الرواية الفلسطينية صارت صوتا صارخا لهذا الواقع المأساوي الذي مرت وتمر به أرض الميعاد في المدن والقرى والجبال.. في الحيز المكاني الذي شكل دولة الضياع..

ولأن الرواية تعد من بين الأشكال الأدبية الأكثر تصويرا لحياة الإنسان المعاصرة، باعتبارها الوسيلة الأنسب للتعبير عن مشكلاته، والأقدر على مواكبة مجريات الحياة، بتقديم صورة عميقة عن الواقع المعقد فقد انتشرت وازدهرت الرواية الفلسطينية التي تصور واقعا مأساويا في ظل أشرس استعمار واستيطان عرفته البشرية.

ونستقرئ في هذا المقال الحيز المكاني لمدينة تتضرج بالدماء والدموع، مدينة فلسطينية صورتها الروائية "فتحية محمود الباتع" في روايتها المأساوية "وداع مع الأصيل".. هو وداع لزمن الفرحة والأمن والاستقرار. نستقرئ في هذا المقال ذلك المكان الذي يتحرك بتحرك الحدث، ومع حركة الصوت، والزمن السردي.. قراءة للمدينة الضائعة الحزينة .. ذلك الفضاء الذي يئن وجعا لمدينة لم تستنر بنور الفرح في ظل لون الدم وصوت الرصاص.

1– عن "وداع مع الأصيل"[1]:

[1]– ورد على غلاف الرواية ما يلي: إنها للأسف رواية واقعية تتضمن أنواعا من المآسي التي دونها التاريخ على صفحات دامية لشخصيات مختلفة الأمزجة والضمائر، جمعت بين النبل وأصالة الخلق والتفاني في حب الوطن والفداء، وبين القبح وجشع النفوس وسوء الإدراك وغفلة الضمير.
جرت أحداثها فوق التراب العربي الفلسطيني إثر قرار تقسيم فلسطين عام 1947، وما كان بعدها من الهجمة الصهيونية الشرسة على البلاد وأهلها في ظل الانتداب البريطاني.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

"وداع مع الأصيل".. رواية للفلسطينية "فتحية محمود الباتع"[1]، هي قراءة لسنفونية المكان الذي قام على فعل التحول، وباللغة السميائية علاقة الاتصال والانفصال التي ربطت بن المدينة وأهلها..

تقوم الرواية على السرد الخطي البسيط التقليدي، برؤية واحدة وصوت واحد ولغة واحدة لا تتغير بين شخوص الرواية.

وإذا اعتبرنا هذه الملاحظة سمة سلبية في الرواية إلا أنه يمكننا استنتاج شيء مهم.. أن "وداع مع الأصيل" تعتبر من الروايات الأولى التي كتبت في الأدب العربي.

بل هناك من يرى أنها تعد من بدايات الإنتاج الروائي النسوي. لغتها تشع منها الحياة، لغة أدبية جميلة، لكن سردها تقليدي. لها صوت واحد، وكل شخوصها يتحدثون باللغة نفسها، حتى إنك لن تفرق بين الحضري والبدوي، بين المتعلم والجاهل، بين الصغير والكبير، ولا حتى بين اليهودي والمسلم. ولولا هذه الهنات لاعتبرت "وداع مع الأصيل" من أفضل الأعمال التي أبدعتها القريحة الروائية العربية وليس الفلسطينية فقط. فهي منفتحة على الواقع، تصور تفاصيله بدقة، وتثير مشاعر الاستعطاف في نفوس أي

القضية الفلسطينية ليست قضية الشعب الفلسطيني لوحده، إنها قضية أمة، بل قضة إنسانية وأي صاحب ضمير حي لا يرضى أن يقع لفلسطين وشعبها ما وقع ويقع لها، هذا ما سعت الروائية إلى إثباته وتصويره في هذه الرواية، تحريك الضمائر، هز النفوس، رسم صورة المدينة الضائعة في غمرة الخيانات الداخلية والخارجية.

[1]– فتحية محمود الباتع: روائية فلسطنية درست في جامعة الجزائر، وإضافة إلى رواياتها نشرت كتابا نقديا عنوانه محمود درويش ومفهوم الثورة في شعره، وقد نشرته المؤسسة الجزائرية للطباعة عام 1987، كتب مقدمته الشاعر والدكتور السوداني الكبير عبد الرحمن جيلي الذي كان يدرس في جامعة الجزائر.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

متلقي له حس إنساني و"الانفتاح اللانهائي على الواقع هو الذي يجعل الرواية تتمتع بحرية الحركة والتعبير أكثر من أي جنس أدبي، ويبعدها عن التأطير، ويهيء فرصة وجود التميز والاختلاف في كل رواية"[1]. كما أن "واقعية الحياة لا تجد تعبيرا شاملا لها أكثر مما تجده في الرواية"[2].

2– شخوص الرواية:

"إن الفضاء الروائي لا يوجد خارج حدود الفعل، ولا يمكن أن نرصد فضاء روائيا إلا من خلال اللغة التي تصور حدثا، ومن خلال شخصية تنفذه"[3].

المكان أحد أهم العناصر الفنية المشكلة للرواية، فلا يمكن تصور باقي عناصر الرواية من أحداث وشخصيات وزمان دون إطار مكاني يجمعهم.

كشأن جل الأعمال الروائية هناك شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية، هناك شخصيات فلسطينية وأخرى يهودية، رغم أن الغالب هي الشخصيات الفلسطينية. ثم هناك شخصيات سلبية وأخرى إيجابية.. أي هناك المساندة للفعل أو للموضوع الذي هو الحفاظ على وحدة فلسطين ورفض التقسيم، وهناك شخصيات من الطرفين العربي والإسرائيلي مضادة لفعل الحفاظ على الوحدة الفلسطينية، وساهمت في تحقيق التقسيم وتفعيله.

أما أبطال الرواية فهما سلمى ووليد.. شابان فلسطينيان يافعان متعلمان، يلتقيان في حبهما للوطن وتضحيتهما في سبيله. بعد زواجهما أنجبا بهجة حياتهما "خالد".

[1]– محمد شاهين : آفاق الرواية (البنية والمؤثرات)، اتحاد كتاب العرب، دط، دمشق، 2001، ص7

[2]– المرجع نفسه، ص10

[3]– نعمة خالد : الفضاء الفلسطيني هوية الذات، الملتقى الدولي حول السرديات – أسئلة الهوية في الخطاب السردي، المركز الجامعي بشار، ص 45.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

ومن المساندين لهما وللقضية الفلسطينية نجد سعاد: زوجة أخ وليد الشهيد: شخصية أساسية وطنية بدورها. كما نجد والدة سلمى المرأة الأرملة التي حملت على عاتقها تربية وحيدتها سلمى بعد استشهاد والدها وشقيقها وهي صبية.

جسدت هذه الشخصيات خطاب المحنة والمأساة والاغتراب والتضحية والموت إنها شخصيات وطنية، أمانة ووفاء وفداء لا حدود له.

ويقف في الضفة الأخرى عائلة وليد (باستثنائه هو) باعتبارها المعارض الشرس، سواء حين تعلق الأمر بزواج وليد من سلمى، أو حين قام "شكري بك" والد وليد ببيع جملة من الأراضي لليهود، فكان بفعله المتواطئ الدنيء يصنف في خانة المواطنين الجشعين الذين يعبدون الدينار والدرهم، يعشقون المال ولو كان على حساب أرضهم وعرضهم.. فلا يحزنهم بيع فلسطين لليهود مادام المقابل ثروة تضمن لهم حياة البذخ والترف. أما عائلته المتمثلة في زوجته وابنته وزوج ابنته فكانوا سعداء بحياة الرفاهية لا يهمهم مصدر المال، همهم هو الثراء وحياة البذخ.

كما نجد في الضفة المقابلة شخصية رئيسية مهمة في الفعل الحكائي وهو العم حامد، اليهودي المنافق الذي كان يضمر عكس ما يظهر، فقد ادعى أنه فلسطيني مسلم وإنه كان صديق والد سلمى الشهيد، وإنه جاهد معه فأصيبت رجله جراء ذلك، لكن في الحقيقة هو جاسوس خطير، وقد فعَل الحدث نحو السلبية بتصرفاته الدنيئة.

إن هذه الشخصيات تتحرك في فضاء مدينة "حيفا" حيث تدور أحداث الرواية.. التي تقوم على استراتيجية التعيين[1].. أي التحديد المكاني، أو تحديد الإطار الجغرافي والدلالي الذي تتحرك فيه الشخصيات ويتفعل الحدث بمجموعة الوظائف التي تكوَن

[1]– ينعت نبيل سليمان في كتابه "أسرار التخييل الروائي" الرواية التي لا تعين المكان استراتيجية اللاتعيين، ومنه أخذنا مصطلح استراتيجية التعيين.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

الفعل الحكائي.. ومدينة "حيفا" إنما هي صورة عن المجتمع الفلسطيني في فترة تقسيم فلسطين أو ما يسمى بعام النكبة. هي أيضا حديث حكائي عما كانت عليه المدينة قبل نكبة 47. وبفعل حركة الشخصيات في هذا الفضاء الممتد بين زمن السلم والحرب، تمكنت الروائية من تحريك شخصياتها وفق منظورها حيث تجعلك تعيش الحدث وكأنك حاضر.. فحركة الشخصيات وكذا الوصف الدقيق للحيز المكاني الذي تتحرك فيه الشخصيات تثير مشاعر المتلقي واستفزازه.

الحديث عن الرواية هو حديث عن الشخصيات، هو دعم لرسالة الرواية، هو دعم لتوجهات الكاتب في رسم الشخصية في مدينة تحيا عالم التناقضات.. لم تكن "حيفا" مجرد حيز، أو فضاء إنها موضوع الرواية.

3– موضوع الرواية:

موضوع الرواية الأساس والرئيس هو نكبة 1947 وسقوط فلسطين، هذا السقوط الذي مثلته مدينة "حيفا" وما خلفه من غضب شعبي عارم.. من مأساة في قلوب سكانها وثورة طال أمدها وحول فلسطين (مدينة "حيفا") إلى بقعة رماد.. فاستشهاد البعض، وهروب الآخرين هروبا قسريا وإقامتهم في أمكنة لم يختاروها إنما فرضت عليهم فرضا، تناولت الرواية بالضبط مرحلة تقسيم فلسطين.

إن الوصف الدقيق لمدينة حيفا، والحماس الكبير للروائية، والتغلغل في النفس التي تتكبد جراحا، والروح التي يسكنها الألم الجارف يجعلنا نستنتج وإلى أمد بعيد أن الروائية "فتحية محمود" من مدينة "حيفا".. إذ لا يمكن لمن يحيا خارج إطار المدينة أن يصفها ذلك الوصف المتقن، ويعرف كل دقائقها وأسرارها.. فما هذه الرواية بالذات إلا وصف للواقع ونقل لصورة مدينة "حيفا" ومن خلالها فلسطين كلها.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

كما أن تركيز الروائية على فترة تقسيم فلسطين يظهر لنا وإلى أمد بعيد أن الروائية عاشت هذه الفترة وحضرت خيبة التقسيم، عاشت النكبة فأجادت في وصفها.. بل إنها عاشت المدينة الهادئة السعيدة .. مدينة الحب والحياة قبل التقسيم، ثم عاشت الخيبة في ظل لغة الدم والرصاص بعد نكبة 1947.

قامت الرواية على مبدأ الوصف.. فأبدعت الرواية فيه.. مستهل الرواية بعنوان فصلها الأول "غادة الكرمل".. تقول الرواية: "في بقعة جميلة هادئة من جبل الكرمل الشامخ المهيب القائم في أبدع مدن فلسطين "حيفا"..."

هكذا كان مستهل الرواية.. إطناب في وصف جمال مدينة "حيفا"، وجمال قصر شيد على عتبات جبل الكرمل الشامخ.

تشعر وكأن الروائية تتماهى مع وصفها.. تتماهى مع "حيفا" تشعر وكأن العلاقة بينها وبين "حيفا" علاقة بنوة، علاقة عشق أزلي، أنها ورغم إقامتها بعيدا عنها.. وقد كانت طالبة في الجامعة الجزائرية إلا أن روحها تسكن تفاصيل مدينة الحب والجمال "حيفا".

"حيفا" المدينة.. "حيفا" الوطن.. "حيفا" الأرض الطيبة، "حيفا" ليست مجرد عمارات ومساجد وكنائس، ليست أسوارا وشوارع وأزقة ضيقة وواسعة، إنها أكثر من ذلك.. إنها الإنسان بوجوده وامتداداه.

"حيفا" هي الحضارة بكل ما تحمله من أبعاد.. هي التاريخ، هي الذات والكيان. إنها الأنا التي لا تستوطن أرض الخصب والأمل.

تصف الروائية مدينة "حيفا" مرة أخرى وصفا يجعلك تشعر بمدى القرب بينهما، تشعر حبل الألفة الذي يربطهما، ثم تتأكد أن علاقتها بها لم تكن علاقة عابرة، إنما وصف لمكان كانت تحياه في الواقع كما تحياه في الخيال. تقوا: "تمتاز مدينة "حيفا" عن

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

شقيقاتها من مدن فلسطين ببهاء رونقها فهي تجمع بين المناظر الطبيعية الخلابة مالا يتوافر في المدن الأخرى، ففيها البحر والميناء والجبل الشامخ والسهول الشاسعة الفيحاء، وإذا ما بدا الظلام يدب في أرجائها رأيتها قد ازدهرت بأنوارها من كل جنب فتتحول بمنظرها البديع إلى شطرين لامعين سهلي وجبلي. فالجبل يبدو لسكان الأراضي السهلية كقبة هائلة مرصعة يجلب بريقها الأبصار، ويطل سكان الجبل على الأراضي السهلية فيرونها تسبح بأنوارها كبساط رحب تتألق عليه فصوص ماسية براقة. (**وداع مع الأصيل، ص 31**).

إنه استقطاب لمشاعر المتلقي.. لأن فضاء مثل هذا فيه شيء من سحر بابل، وشيء من جنة عدن سيتحول إلى مستنقع من الدماء.. إنه أسلوب تمهيدي لتصوير فضاعة مشهد سيجعل من المدينة السلام شيئا آخر بعد لأي من الزمن، بعد حين من الدهر، بعد كثير أو قليل من الوصف، بعد قليل من الفرح الذي لم يكتمل، وفي هذا استثارة لعطف المتلقي، وصف لمدينة.. لمكان هو الهوية.. هو السكن.. وما أدراك ما "حيفا" حسب وصف الروائية.. إنه تمهيد للعاصفة التي ستحل بعد لأي من المسار السردي وحركة الخطاب..

كانت هذه هي مدينة "حيفا" قبل تقسيم 1947، مدينة تسكن أهلها ويسكنونها.. تمنحهم من سحرها وهدوئها وجمالها ويرسلون لها خصلات وفاء مع كل إطلالة نحو الشروق الذي يزين عرصاتها.. كانت "حيفا" الجميلة الهادئة.. الوطن الذي له قصة مع التاريخ الذي يضرب بجذوره في أروقة الزمن السحيق، وقصة مع الحضارة التي ما تفتأ تستذكر بطولاتها وأمجادها وتاريخها.. كانت هذه هي "حيفا" .. المدينة الماقبل التقسيم.. الماقبل الهروب.. الماقبل المعاناة.. لنلج عالما آخر مع خطاب آخر مغاير تماما للوصف الأول في صورة "حيفا" المابعد.. (ما بعد التقسيم)، وبسبب رفض أهلها المخلصين لهذا

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

القرار التعسفي، وبسبب الحرب الشعواء التي دارت رحاها في مدن الحب والجمال.. "حيفا"، و"يافا" و"عكة" و"القدس".. تقول "فتحية محمود" في مقطع يختزل حجم الدمار: "وشهدت مدينة "حيفا" مأساة دامية". **(وداع مع الأصيل، ص 112)**.

إذن قام الخطاب الروائي الفلسطيني برمته على الإحساس المؤلم بالفضاء، ونهض مفهوم الفضاء على أساس التناقض بين ما كان وما هو كائن، بين حلم الوطن وحقيقة المنفى"[1].

ثم أردفت الروائية بوصف يهز شغاف القلب: "تحولت مدينة "حيفا" إلى شبه قطعة من الجمر". **(وداع مع الأصيل، ص 122)**.

هذه هي المدينة التي كانت، والتي صارت.. صارت مدينة تدور فيها رحى الحرب، فتصف الروائية هذه المشاهد في قالب حكائي مؤثر جدا، حين يتبع وصف المكان بالحدث المأساوي، صبغا للحبكة وسردا لحقيقة مدينة بخيال رحب.. فلقد "أفاد الروائيون الفلسطينيون كثيرا من قلق الوجود المكاني الذي عانوه، مما أنتج عندهم روايات بالغة الامتلاء بالحضور المكاني"[2].. تقول الروائية في مشهد مدائني آخر:

"فيتردد صدى هديرها في أجواء المدينة وهي تنقض انقضاض الصاعقة على الأحياء العربية، عندما أخذ اليهود يمطرون خصومهم بها من أعلى قمة الجبل الشامخ". **(وداع مع الأصيل، ص 122)**.

وتردف مع قصة السقوط الفضيع "حشد العرب من أهل المدينة كل ما لديهم من قوة لمقاومة ذلك العدوان الهائل". **(وداع مع الأصيل، ص.ص 198. 199)**.

[1] – نعمة خالد : الفضاء الفلسطيني هوية الذات، ص46.

[2] – المرجع نفسه ، ص 58

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

"وانتهى الأمر دون أن يتمكن ألئك القرويون من نجدة إخوانهم والعبور إلى مدينة "حيفا". (**وداع مع الأصيل، ص 199**).

إذن حوصرت المدينة التي كانت تحياهم ويحيونها.. تلك المدينة التي لم تكن يوما وجودا ماديا.. يباع ويشترى.. وجودا لا يمكن الاستغناء عنه واستبداله بمكان آخر.. فلا شيء يعوض المكان.. البديل هو الغربة.. البديل هو الضياع.. هو البعد.. لأن المدينة التي تنتمي إليها هي صورة عن الأرض.. صورة عن الوطن بامتداده وشساعته.. المدينة هي في أولا وأخيرا صوت الهوية والحرية والانتماء.. إنها جزء من الأنا أو هي الأنا بكل امتلائه..

وتسقط مدينة "حيفا".. وينهار حلم المدينة: "اليهود يقتحمون البيوت العربية فيفتكون بأهلها بعد أن سقطت المدينة من يد العرب". (على لسان حامد). (**وداع مع الأصيل، ص 202**).

ودائما مع ألم السقوط الذي يتكرر، والموضوع البؤرة الذي هو مدينة "حيفا" تردف المشهد: "ويلاه أسقطت المدينة في أيد اليهود؟!". (على لسان عجوز). (**وداع مع الأصيل، ص 203**).

وما من حل آخر غير الهروب.. غير الرحيل للذين نجوا من الحرب، ومن المباغتات الليلية للقتل والحرق.. الهروب في أسرع وقت ممكن واختيار المنفى والغربة.

"لقد سقطت "حيفا" من أيدي العرب ولم يعد لنا أمل في البقاء بها، بل أصبح الرحيل ضروريا خشية أن يداهمنا اليهود على حين غرة فيفتكوا بنا ويجردونا من حلينا ونقودنا كما حدث أن فعلوا بغيرنا من أهل البلد". (حوار بين سعاد وزوجة عمها ضريفة). (**وداع مع الأصيل، ص 209**).

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

إن المابعد في "وداع مع الأصل" سرد لسنفونية السقوط، والموت والدمار والرحيل والتشرد.. إنه وصف لألم لا يضاهيه ألم، وحسرة تقبع على جبين أهلها المغتربين الذين هربوا يجرون الخيبة والحزن.. بعد أن ضاعت مدينة "حيفا".. بعد أن ارتدت ثوبا أحمرا من الدماء: "لبست المدينة ثوبا قاتما من الدماء التي أخذت تسيل فوق أرضها مدرارا تروي ثراها من دماء أهلها... وتكدست بها جثث الشهداء تملأ الشوارع والأحياء، وكانت مجزرة حمراء مروعة لم يشهد التاريخ مثلها. (**وداع مع الأصيل، ص 200**).

لم ينهار صرح "حيفا" فقط.. إنما أجزاء كثيرة من فلسطين سقطت.

فكان رد الربان حين طلب منه الركاب أن يتزلهم بمدينة "يافا":

"البلاد الساحلية من أرض الوطن أشبه بقطعة جمر تتقاذفها قنابل اليهود من كل جنب وناحية، ولم يبق من مكان هادئ بأرضنا فلسطين إلا الجزء الجنوبي، وأما مدينة "يافا" فوا أسفاه". (على لسان الربان). (**وداع مع الأصيل، ص 221**).

"حيفا" تلك المدينة الواضحة المعالم..المتعددة المعاني صارت تعيش حالة من التشظي والتمزق وإن اختيار المنفى هو محض إجراء قسري..

وقد ورد الحديث عن مدينة "يافا" مرتين.. المرة الأولى حين لجأ إليها "شكري بك" والد وليد وأسرته هروبا من المجـــاهدين الذين اكتشفوا خيانتـــه للوطن فهددوه بالقضاء عليه: "رحل هو وأسرته إلى مدينة "يافا واستقبلتهم المدينة الكبيرة الجميلة في نحو التاسعة مساء". (**وداع مع الأصيل، ص46**). ففي هذا شيء من التنقل البطيء الاضطراري إلى مدينة "يافا"، فحتى شكري بك اختار الذهاب إليها اضطرارا، هرب خوفا على نفسه.. لا يمكن للقارئ ألا يتوقف عند هذه التفاصيل التي تبدو صغيرة وبسيطة.. استقبلتهم مدينة "يافا".. إنه ذلك الإحساس أن المدينة كائن بشري له روح

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

يحس ويشعر.. إنها الرحمة التي لا تكون إلا من أرض .. من أم تشبعت بالرحمة.. رغم الخيانة إلا أن المدينة استقبلتهم بهدوئها واتساعها وجمالها.. لكنه مات فيها ودفع ثمن خيانته، فـــ"يافا" وفية لأهلها فرفضت احتضانه طويلا، مات فيها بائسا يائسا عاجزا، جائعا..

ولأن "يافا" وفية لأهلها الأوفياء فقد طمع الفلسطينيون من سكان "حيفا" الفارين من بطش العدو في رحمتها راغبين اللجوء إليها.. لكنها كانت بدورها تتأوه ألما.

وفي المرة الثانية ورد الحديث عن مدينة "يافا" بعد سقوط "حيفا"، وتناول المشهد التراجيدي رغبة الفارين اللجوء إليها.. فكان رد الربان بأن "يافا" بدورها وقعت تحت سيطرة اليهود الغاشم. وعليهم أن يختاروا لأنفسهم منفى آخر. وما أفضع المنفى .. ما أفضع الرحيل الإجباري والإقامة الاضطرارية.. علما أن "كل فهم للفضاء الروائي في الرواية الفلسطينية يقوم على مفهومي الوطن والمنفى، مما يمنح هذا الفضاء خصوصية تميزه عن أي فهم جماعي آخر للفضاء"[1].

"حيفا" مدينة من الوطن الشاسع الواسع، مدينة ترافق أهلها في كل مراحل الصعود والنزول، مدينة كانت ولازالت وستظل رغم العزل والحصار والقمع والتهجير، مدينة ستبقى رغم سقوطها صامدة تنتظر الفرج.

مدينة كانت مرتعا للفرح، مسرحا للأمل، ابتسامة الهدوء وشروق جميل، لتتحول إلى بساط دم أحمر، لتطبع بلغة الدم والدموع، وتكتب حضورها بالمنفى الذي يحتضن القلوب النازلة النازفة.

[1]– نعمة خالد : الفضاء الفلسطيني هوية الذات، ص45.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

لقد عاشت الروائية المدينة بعمق.. ووصفتها بعمق، كانت تقول على لسان المدينة التي تتحرك فيها الشخصيات، ويتلولب الحدث حسب الأحداث أن "حيفا" ليست مجرد فضاء، إنها الإنسان.. إنها الأنا والأنت والآخر الذي يعيش صراع البقاء والرحيل القسري، "حيفا" هي الوجود والحضور والاستمرار.. هي الانطلاق من نقطة زمنية لها تاريخ ماض وحاضر ومستقبلي. مدينة "حيفا" في هذه الرواية أسبغت من روحها على الأرواح التي تسكنها، تجرعت معهم صنوف المعاناة، وحاولت أن تبقى صامدة لكنها لم تتمكن من حماية أهلها و لم يتمكن أهلها من حمايتها رغم أودية الدماء التي سالت فاختاروا الهروب.. وفرضت عليهم الغربة برقعها الأسود. لكن رغم ذلك مازال هناك حيز مكاني يسمى مدينة "حيفا"، وآخر "يافا"، وآخر القدس، وآخر غزة..

كان لهذه المدن وأخرى من أرض فلسطين الطاهرة صوت وصورة، كان لها ولايزال، صوت المدن التي تتحدى لتبقى، وصورة المكان الذي يأبى الاندثار ويتطلع إلى شمس الغد الواعدة.. مدينة صارت كالكائن تعبر عن نفسها بنفسها، مدينة "حيفا" ليست ككل المدائن، إن لطرقها وساحاتها وجدرانها ومساجدها.. إن لكل ما يحويها ويحتويها صوت النغم الحر المضرج بالدماء يحاكي الإباء.. وكان لرواية "وداع مع الأصيل" قوة الحضور السردي والروائي الذي يصور بعمق مأساة غير عادية، بلغة تتغلغل إلى أعماق القلوب، بحبكة منسوجة بإتقان.

قائمة المصادر والمراجع:

1– بيير شارتي: مدخل إلى نظريات الرواية، ترج عبد الكريم الشرقاوي، ط1، دار طوبقال للنشر، المغرب، 2001.

2– عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ط1، 2016.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
SSN 1112-4040 / EISSN 2588-204X
DOI: 10.37138/1425-036-001-021
المجلد:36 العدد:01 السنة:2022 الصفحة:713– 727 تاريخ النشر:10–05–2022

3– فتحية محمود الباتع: وداع مع الأصيل "رواية"، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

4– فاضل عبود التميمي: دراسات ثقافية في الرواية والرحلة والمقالة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن 2021،

5– محمد شاهين: آفاق الرواية (البنية والمؤثرات)، اتحاد كتاب العرب، دط، دمشق، 2001.

6– نبيل سليمان: أسرار التخييل الروائي، ط1، اتحاد الكتاب العرب، 2005.

7– نعمة خالد: الفضاء الفلسطيني هوية الذات، الملتقى الدولي حول السرديات – أسئلة الهوية في الخطاب السردي، المركز الجامعي بشار.

8– وحيد تاجا: الرواية الفلسطينية – حوارات نقدية، تقد: فيصل الدراج، دار الجندي للنشر والتوزيع، دط، 2014.